

تحت ظلال الشجر

للكاتب الانجليزي " فرنسيس بيك
بهتم الاستاذ فؤاد الطويحي

سحرية فتستحيلون إلى كائنات صماء
كقطع الأحجار التي تكتنفكم ، وتغيب
الشمس الأفريقية وراء الأفق فتنبئون
عن الوجود ، وتكادون تنفون فيما
حولكم من نجاد ووهاد ، وإذا البحر
من بعيد يكشف عن صفحة من الجين ،

وإذا الجبال تتراءى منحدراتها بما يكسوها من
الورد القاني ، وإذا السماء فوقنا نتيه بزرقها
الصفافية الأديم ، وتوغل في الارتفاع طبقات
بعضها فوق بعض ، وتحسون بالأرض الدافئة
من تحتكم تخمد حرارتها شيئاً فشيئاً ، وتومض
الآفاق بقبس من الوهج الأحمر وهي تتلاقى آخر
أشعة من ضوء الشمس المنحسر ، ثم تنبؤ عنكم
النشبة فتستيقظون وتعودون إلى الحياة ، وتمدون
وتمرحون وتهبطون وتعلون ؛ وإذا بالليل يهيمن
على الطبيعة ويمد ظلاله فوق أرجائها ، فترحلون إلى
كوكب جديد . فها هي ذى صفحة السماء تتلألأ في
جنباتها شموع النجوم ، وها هي سفوح الجبال يلعب
وراءها برق أبيض يبدد حلقة السواد وظلمات
الليل البهيم ، ويزداد الضوء لمعانا وظهورا حتى يتربع
القمر في كبد السماء وتهب نسائم الليل فتتمش
أرواحكم عما تحمل من عبير الورد وأريج الأزهار ..
تلك الطبيعة برمتها ، نجومها وقرها وبحارها وجبالها
إنما هي ملك أيمانكم .

وها كم قصتي ، هي قصة رجل وامرأة ...
وامرأة أخرى . وسأنتقل بكم إلى مكانهما في سفح
الجبل حيث صعدا . . أما الرجل فقوى البنية ممتلئ
الجسم ملبح الوجه ، هولاندى النبات . . والمرأة
في مقتبل العمر وريعان الصبا وفرط الحسن والجمال .
وقف كلاهما على سفح الجبل ، وأشمل الرجل
نارا في كهف مخضوضل الجوانب ، وكانت المرأة

كوسارد يروي القصة ... وكوسارد رجل
طويل اللقمة ، جبل الوجه ، مفتول الساعدين ،
عريض المنكبين ، ينبعث من نظريه برق يجلب
اللب ، ويجرى في عروق دم هندي ، ولقد جاء مع
والده إلى إفريقيا وبصحبهما واحد ومائة من الهنود
لينافس بهم عملا يقوم به واحد ومائة من الاغريق
ورحل كوسارد إلى انجلترا ، وأقام فيها ردحا
من الزمن ثم رجع إلى إفريقيا وأحاط به يوما جماعة
من الهنود ومحدثوا إليه في مختلف المسائل ثم نهض
ملجان وسأله أن يطالعه ببعض المناصرات ، وألح
في الطلب وألحف ، وأهاب به إخوانه أن يسكت ،
وأوقفوا الجلبة حتى ينصتوا في هدوء لقصة كوسارد
سأتلو على مسامحة قصة لا يجد فيها ملجان
المثل الأعلى للقصة التي تصبو نفسه إليها ولكنها
شائقة ممتعة ، وسأذهب بكم إلى منطقة من الأرض
جرداء موحشة ليس فيها إنس ولا جان ، فتبصرون
عند الأفق ضارعا خضرأ ، تتخللها حدائق غناء ،
وتسيرون وعلى يمينكم قلاة تنتهي بكم إلى غدير
صاحب ، وعلى يساركم جبال زرقاء خلوا من الثلوج ،
فالوقت صيف ، والشمس شديدة وهاجة تمحرق
الجلد وتذيب الثلج وقد آذنت بالغروب ، وبدأ الليل
يرخي سدوله . فتقفون صامتين خاشعين بعد
ما انمحت آثار الحياة وضجيج الحركة ، ولا يبقى
أمامكم إلا جلال الطبيعة وروعها ، فلا يسعكم إلا
التسبيح لله على ما خلق وأبدع ثم تطيف بكم غلالة

دعهم يذهبون في سبيل هذه الليلة الساحرة ، وفي سبيل الرجل الوحيد الذى أحبه . . . أحبه .

وكانت ولحانة مفتونة به إلى حد الجنون، تذبذباً لمسة، وتروعها نظرة فديهاها أحلام، وجسدها الهيب.

وتمذر عليها أن تحذنه في أمر، إذ كانت زفراتها تتصاعد تباعاً بقوة من صدرها فأدناها منه وداعب شعرها وهمس : — أنت لا تحبيننى !

— كلا ! إني أحبك

فقبها في عينيها وفها وعانقها ، فغشيتها غبطة حميقة من الهيام ، فعمدت إلى وجهه وطبعت عليه قبلة ضخمة وعادها ما يشبه الأحلام ، ثم تنهت فأفاقت ورجعت إلى صوابها ، وصرت بخاطرها صورة من ذكريات ماضية فوجت وخججت ووججت،

وامتد خيالها إلى أبها ، فرأته يدخن غليون، وإلى أسها فوجدتها تحيك لها معطفاً ، فنفرت وتباعدت عنه وأدارت وجهها إلى ناحية أخرى، فدهش وسار نحوها يستمع لها ، ثم ذهب إلى الكهف وأخذ يحرك النار المشتعلة ، أما هي فأنشأت ترقب الأفق والسماء ، وإذا بكوكبة جديدة من النجوم تبرز في الجو وتسيطر على سائر الأجرام السماوية فزيدها رواء وبهاء ، وأنصتت فسمعت خشخشة ورأت شيئاً يتحرك . .

شيئاً مظلماً غريباً فذهرت وشهقت ونهضت ، فأبصرت معبودها واقفاً ممسكاً بمعصمه فتمتمت

— حية . . لا ؟ . . ليست حية

— لا . . بل هي حية حقاً

— لم أر شيئاً كهذا في حياتى . . لا . . رأيت ما يشبهها في حدائق الحيوانات .

وساد سكون رهيب . . ثم قطمته قائلة

— ماذا تصنع ؟ بل ماذا أفعل . . وارتجفت

وحارت في أمرها ، ودقت يداها ، وخارت قواها

وهالما الموقف حتى صمعت

وبداً يتنصص معصمه فأقبلت نحوه فتمها ، ثم

جافة الخلق ، فحمل الرجل في كفيه ماء من ينبوع وتقدم إليها فروت ظمأها ثم وضعت رأسها فوق يديه كأنها تحاول إخفاء نفسها عنه ، وكان صدرها مغمماً بالشجون والخواطر المحتبسة ، فأطلقت لها العنان وطفقت تبكي والدموع تنهمر من عينيها فوق يديه فهدأ روعها وطيب خاطرها وسألها :

— ماذا يبكيك يا حبيبتى . . أتخافين ؟

— كلا ، كلا . است خائفة

وظهرت في خلال دموعها ابتسامة ، وداعبت شعرها ، ونظرت إليه بدلال ورشاقة ، ثم عانقته وعادت فنفرت منه وابتمدت عنه ، وقالت :

— هذه مخاطرة مروعة

— ما الحب إلا مخاطرات

— ولكنى كذبت في قولى في الفندق ، ومنذ شهرين فقط لم أكن أعرفك وأحبك ، ولا أدري كيف جري ذلك ، ولم جئت إلى هنا ؟ وماذا يظن والداي الآن ؟ هل يظنان أننى أعيش على سفح جبل ؟ ومع من ؟ مع رجل متزوج ويستحيل أن يطلق زوجته . . ولماذا لم أعرفك قبل زواجك ؟

— أنظري يا عزيزتى ! لقد صنعت القهوة ، فهيا نظهى طعام العشاء .

وجلسا يشربان القهوة ، وكانت للديدة . وخرجت الحشرات من تقويعها تنصت ، وتمايلت الأشجار ، واستوت النجوم الوضاءة في السماء وهبت نسائم فيحاء وساورتها الهموم ، وقالت بصوت غير مسموع لنفسها :

— هي أن أختى جاءت إلى هنا . . هي أن أحد الناس رأى . . هي أن زوجته تفقدته فلم

تجد . وحضرت تبحث عنه . . هي . . هي

وداعب شعرها فشمرت بيده ، وتلصقت بالسرور واتسكت عليه وقالت :

— دعهم يذهبون إلى حيث يشاءون . . فاشأنهم بنا . . نحن في إفريقيا المحبوبة الرائعة . .

وتدحرجت فوق الأحجار حتى بلغت الأرض وسارت
على غير هدى في ليل إفريقي المظلم وهناك طمه ملجان:
— يلوح لي أن هذا الهولندي ممن يأخذون
من الأشياء أطيبها فحسب، فاعترضه كوسارد:

— كلا أنت مخطئ
— يظهر أنك تزوجتها يا كوسارد فاني أعرف
نهاية أمثال هذه الفتيات
— كلا، لم أتزوجها، وهي تعيش عيشة رغدة
— ولكن أظنك أخبرتنا أنها غضبت وتركته
في الجبل

— نعم ولكنه لحق بها
وعرج على صركية بجواره ولم تكن تتوقع مجيئه
بل أخذت تسير عند انبثاق الفجر هاتمة على وجهها
دون مال أو متاع، حيرى لاندوى على شيء وفي رأسها
حلم بفندق كانت نازلة فيه وقدمها تسوقها إليه
فأشاحت بوجهها عنه لأنها كانت غاضبة حاتقة،
وتحدث إليها فلم يحب، وأمرها أن تبقى في الفندق
فأذعنت للأمر على كره منها إذ لم يكن لديها سبيل
آخر، وعاد هو إلى الجبل وقضى سحابة يومه
يفكر، ويفكر طويلا، فمقد النية على طلاق
زوجته.. تلك الزوجة الفاتنة المرحلة التي هجرها
ولكنها لم تكن لتأسف على تركه لو نالت حقوقها
المالية كاملة. ثم كتب خطاب استقالة من وظيفته،
وأخذ يحصر أملاكه لبييمها، ويجمع أمواله من
المصارف استمداً للرحيل مع معبودته إلى أرض أخرى
وفي تلك الليلة كانت زوجته في صرختها وبجانبها
رجل نمل، وانطلقت تعدو بهما في نفس الطريق
المؤدية إلى الجبل، وأضيئت أنوار السيارة، فلهج هرمنس
زوجته بطرف عينه فحجل ولكنه ابتسم وقال:
لقد أصبحت الآن أختي.. أختي الصغيرة الطريفة..
غادة فائنة هيفاء.. أليس كذلك؟ فزار الطرقي

أنهالت على يده الجريحة وأمطرها وابلا من القبل
وهي ولهي خائفة دامية القلب فقال لها:

— إذهي إلى الكوخ القائم في أسفل الجبل،
واطلبي المونة من صاحبه فعنده تزيق ودواء.

فشت مسرعة في المر في طريقها إليه، ولكنها
ما لبثت أن توقفت وفكرت في اقتضاح أمرها لأن
الرجل سيعلم كاسيم أولاده، ثم ماذا يكون حالها مع
أبيها وأمها، فمادت واسترسلت في التفكير فتوهمت
أن الرجل سيموت... سيموت في الكهف، وستبقى
وحيدة على الجبل حتى مطلع الفجر، فصرخت
صرخة مدوية فزع منها الطيور في أوكارها فخرجت
نحوم حول الجبل. أما هو فغاطبها في لمحة حاسمة
— إما أنك تحبينني أولا. لو كنت تحبينني
لذهبت توا إلى الكوخ

فصاحت وهرعت نحوه وعانقته وقبلته بوله وقالت:
— إني ذاهبة.. إني ذاهبة.. وأخذت تمدو
في المر فناداها فوقف:

— تعالى
— كلا، سأذهب اثلا تضيق الفرسة
— تعالى.. تعالى.. فقد كنت أعالج النار عند
ما اقتربت منك وهرولت إليها فوجدتها من النوع
الذي لا يؤذي، فتركها تمضي في طريقها، وقد
اخترعت فكرة اللدعة لأختبر مبلغ حبك لي، فأيقنت
أنك تحبينني حقاً.. فتعالى.. تعالى إلى.. وضعها
وقبلها قبلاات حارة في شغف وشوق.

أما هي فاسترجمت ونفرت ومرت على وجهها
سحابة من الغضب والسخط والتوت أصابعها من
شدة الحنق ثم واجهته في كبرياء وأنفة

— إني أكرهك.. أكرهك لخداك إياي
أيها الوحش المفترس. واستدارت وأخذت تهبط
الجبل غير مكترثة بصيحاته ونوسلاته، فوثبت وانزلت